عيد النيروز.. شعائر الفرح

■ د. نور الدين أبو لحية

عند مراجعة المواقف السلبية من العيد الذي اتفقت عليه الكثير من الشعوب، والذي يُطلق عليه " النيروز " في المناطق الفارسية والكردية، أو " شم النسيم " في مصر، أو " عيد الربيع " في الشمال الإفريقي، وغيرها من التسميات نجدها تعود لسببين:

أولهما ـ اعتباره عيداً جاهلياً، لأن الشعوب كانت تحتفل به قبل الإسلام، ويشاركهم في ذلك المسيحيون وغيرهم. وقد قال الذهبي في رسالته " التمسك بالسنن والتحذير من البدع" : (أما مشابهة الذمة في الميلاد، والخميس، والنيروز، فبدعة وحشة.. فإن فعلها المسلم تديناً فجاهل، يُزجر ويعلم، وإن فعلها حباً لأهل الذمة وابتهاجا بأعيادهم فمذموم أيضا) . ومثله ورد في الموسوعة الفقهية الكويتية المعاصرة: (لا يجوز التشبه بالكفار في أعيادهم، لما ورد في الحديث: "من تشبه بقوم فهو منهم". ومعنى ذلك تنفير المسلمين عن موافقة الكفار في كل ما اختصوا به).

ثانيهما: اعتبار الأعياد من جملة الشرع والمناهج والمناسك التي لا يجوز للأمم أن تتوافق عليها، لأن لكل أمة شعائرها الخاصة بها، ويستدلون لذلك بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧]. ويقيسون الاحتفال بالنيروز بالقبلة والصلاة والصيام، ويذكرون أنه لا فرق بين مشاركتهم في العيد وبين مشاركتهم في سائر المناهج، فإن الموافقة في جميع العيد موافقة في الكفر، والموافقة في بعض فروعه موافقة في بعض شعب الكفر.

ونحن نرى أن كلا السببين غير معقولين ولا شرعيين، وذلك من خلال الوجوه التالية:

الوجه الأول

أننا عندما نرجع إلى القرآن الكريم نجده يعتبر الجاهلية عبارة عن قيم منحرفة لاعلاقة لها بما أباحه الله من الفرح والسرور والتزين المشروع، كما قال تعالى عند ذكر جاهلية التصور والاعتقاد: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقال في جاهلية الحكم بغير ما أنزل الله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. وقال في جاهلية التبرج: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقال في جاهلية العصبية والقومية: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]

هذه هي المواضع التي وردت في القرآن الكريم حول الجاهلية، وهي عبارة عن قيم منكرة معقولة المعنى، يمجها الطبع السليم، والفطر الصافية، والعقول النيرة. أما ما عداها مما لا علاقة له بتلك الانحرافات أو غيرها، فإنه لا يمكن اعتبارها جاهلية، بل قد تعتبر من الفطرة السليمة التي فطر الله عباده عليها، ويدل لذلك قول رسول الله (ص): (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). أي أن هناك أخلاقا طيبة كانت موجودة في الجاهلية، ولم يأت رسول الله (ص) لإزالتها، وإنما جاء لتأكيدها وإقرارها، وإضافة المزيد إليها.

وعند تطبيق موقف رسول الله (ص) على عيد النيروز نجد تشابها كبيرا، ذلك أن هذا العيد اتفقت عليه أكثر شعوب الأرض.. وليس فيه أي انحراف في ذاته، ولذلك من الحرج الكبير اعتباره من الجاهلية التي نهت الشريعة عنها.

الوجه الثاني

وهو ما المانع في أن يكون لهذا العيد أصل شرعي في الأمم السابقة، أو لدى الأنبياء السابقين، خاصة وأن كل المؤرخين يذكرون قدم هذا العيد، وشموله للبشرية جميعا، وبأسماء مختلفة، وبذلك يكون من التراث البشري الذي يستحسن الحفاظ عليه، وتوجيهه الوجهة المناسبة. وهذا الأمر لا ينطبق فقط على هذا العيد، بل ينطبق على الكثير من الأفكار التي قالها الفلاسفة أو غيرهم، والتي لا تعارض الإسلام، وقيمه، ذلك أنه من الصعب اعتبارها تراثاً منحرفاً، أو من آثار الجاهلية، بل قد تُعتبر من التراث الذي انتقل للأمم السابقة عن طريق الأنبياء عليهم السلام أو غيرهم من الهداة، ولذلك، فإن العاقل الحكيم ينظر إلى الأشياء من حيث مصالحها ومفاسدها، لا من حيث من انتسب لها أو ادعاها، فقد يدعي المبطل الحق، وقد يقع المحق في الباطل. ولهذا ورد في الأحاديث ، الأمر بالبحث عن الحكمة والأخذ بها ، كما قال رسول الله (ص): (الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها) .

والحكمة الموجودة في عيد النيروز، والتي يمكن الاستفادة منها ذات وجوه متعددة، وأولها تحقيق التآلف بين البشر، والذي يحقق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. ذلك أن التآلف مقدمة التعارف، ومن الحرج الكبير أن يخالف المسلم غيره في الفرح بمناسبة معينة، لا لانحراف وُجد فيها، وإنما فقط لكونهم يفرحون.. وكأن الشريعة طلبت منا أن نحزن لفرح الآخرين، لا أن نشاركهم فرحهم، ثم نستثمر ذلك الفرح في التواصل والتآلف الذي هو مقدمة الدعوة إلى الله، فلا يمكن أن ندعو أحدا ونحن ننفر منه أو نمارس ما ينفرنا منه، وقد قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومن الحكم الموجودة في عيد النيروز الاهتمام بالجمال الذي بثه الله تعالى في الكون، وهو مطلب شرعي نصت عليه الآيات الكثيرة التي تأمر بالنظر في الحدائق الغناء والثمار اليانعة للتعرف على الله من خلالها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩] .

وبذلك فإن عيد النيروز مناسبة للدعوة للاهتمام بالبيئة والحرص على جمالها، ومواجهة كل المؤامرت التي تتعرض لها، والتي

اعتبرتها الشريعة من الفساد في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] .

ولذلك، فإن المسلم أولى الناس بأن يحمل راية الحفاظ على البيئة، والدعوة إلى الاهتمام بالطبيعة وجمالها، بل أول المتذوقين لذلك الجمال، لأنه يربطه بإيمانه ومعرفته بالله تعالى، فجمال الكون دليل دعلى جمال المكون والمبدع.

الوجه الثالث

وهو في الجواب على ما ذكره المعارضون للاحتفال بعيد النيروز، بسبب ارتباطه بشعائر الدين، وهذا موقف عجيب ومتناقض في نفس الوقت، ذلك أنهم ينكرون النيروز باعتباره عيداً جاهلياً، أي تمارس فيه طقوس الجاهلية وشركها، فإذا ما جاء من يعدل في تلك الشعائر، ويحولها إلى التوحيد والإيمان اعترضوا عليه بكون ذلك بدعة، وشعائر جديدة في الدين. وهذا بسبب سوء فهمهم لمعنى الشعائر.. ذلك أن المقصود منها العبادات التوقيفية المضبوطة، أما ما عداها من الأدعية والأذكار والممارسات التي لا علاقة لها بتلك العبادات، فإنه لا حرج فيها، لأن الدعاء ورد الأمر به مطلقاً من غير تحديد، لا لزمانه، ولا لصيغته. فلذلك ما المانع في أن يدعو المسلم في ذلك اليوم بهذا الدعاء: (يا مقلب القلوب والأبصار ، يا مدبر الليل والنهار ، يا محول الحول والأحوال ، حول حالنا إلى أحسن الحال)، فهو دعاء توحيدي متوافق مع كل الأدعية الشرعية، وفي نفس الوقت يحمي المؤمن من الرؤية الجاهلية الشركية لما يحصل في الكون من أحوال وتقلبات؟.. وهل يمكن أن يقول عاقل: يمكنك أن تدعو بهذا الدعاء في كل الأيام ما عدا يوم النيروز؟. بالإضافة إلى ذلك ما المانع أن يغتسل المؤمن في ذلك اليوم ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه، فذلك كله من الزينة المشروعة، وخاصة إذا لم ترتبط بالفخر والخيلاء؟ . وهكذا يقال في كل الطقوس، حتى تلك التي جرت عليها بعض الأعراف، ما دامت لا تمس صميم التوحيد والإيمان والقيم الأخلاقية. ذلك أن تلك الشعائر هي في حقيقتها شعائر الفرح، والإسلام لم يحرم علينا شعائر الفرح، والطقوس التي نمارسها عندها ما دامت لا تمس حمى التوحيد، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] .